

مَدَارُ الْوَطَنِ
٤١٢

كيف تصوم الجوارح



عالم الحسنى

إعداد: خالد أبو صالح

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب

الرياض - ص. ب. ٢٢١٠ - هاتف ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس ٤٧٢٣٩٤١

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

كَيْفَ تَصُومُ الْجَوَارِحُ؟

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد ..

يحسب كثير من الناس أن الصيام هو مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وأنه ليس للصيام أثر إيجابي على أخلاق الصائم وسلوكياته وتصرفاته، بل إن بعضهم يظن أن الصيام يؤدي إلى سرعة الغضب والجهل والتعدي على الآخرين، وهذا تصور خاطئ لحقيقة الصيام وآثاره وفوائده.

فالصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر سورة الشهوة والغضب.

والصيام يفرغ القلب للذكر والفكر، ويكسر النفس عن الأشر والبطر والغفلة، فإن خلو البطن من الطعام والشراب ينور القلب، ويوجب رفقته، ويزيل قسوته وغشاوته، فكيف يُظنُّ بعد ذلك أن الصوم له تأثير إيجابي على الصائم؟ أو أن تأثيره هو مجرد تأثير سلبي كما يشاهد على بعض الصائمين؟

والحقُّ أن هؤلاء الصائمين الذين تسوء أخلاقهم، وتشتد

سورة غضبهم حال صيامهم، لم يجاهدوا أنفسهم في إيقاع الصيام على الوجه المطلوب، لأنهم لا يعرفون حقيقة الصيام، بل يصومون على سبيل العادة، التي هي ترك الطعام والشراب والشهوة فترة من الوقت، وقد قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الطعام والشراب.

وقال جابر: إذا صمت، فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

وقال الشاعر:

إذا لم يكن في السمع مني تصاون
وفي بصري غضٌّ وفي منطقي صمتٌ
فحظي إذا من صومي الجوع والظما
فإن قلت إني صمت يومي فما صمتٌ
ويدلُّ على ذلك قول النبي ﷺ: «ربِّ صائم حظه
من صيامه الجوع والعطش، وربِّ قائم حظه من قيامه
السهرة» (رواه أحمد وصححه الألباني).

قال ابن رجب: (وسرُّ هذا أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب إلى الله تعالى بترك المباحات، كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل) «لطائف المعارف».

فالواجب على الصائم ترك جميع المحرمات، وكفُّ

لسانه وجوارحه عن المحرم، كما قال النبي ﷺ :
«الصوم جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا
يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم»
(متفق عليه).

فالصائم لا يؤذي أحدًا، فإذا أُوذي صبر وتحمل
وعفا وتسامح وغفر. قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ
ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل
فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (رواه أحمد
والبخاري)، وقال ﷺ: «ليس الصيام من الأكل والشرب،
إنما الصيام عن اللغو والرفث» (رواه الحاكم والبيهقي).

(وإذا تقررت هذه الأحاديث علم منها أن مما يتأكد
على الصائم الاعتناء الأعظم به: المحافظة التامة على
كف اللسان عما لا خير فيه من الكلام؛ كالكذب والنميمة،
والغيبة والمشاتمة، وكل كلام قبيح، وكذا كف نفسه
وبدنه عن سائر الشهوات والمحرمات، فذلك هو سر الصوم
ومقصوده الأعظم، لتكسر نفسه عن الهوى، ويقوى
على التحفظ من الشيطان وأعدائه بإحكام أساس التقوى.

قال المتولي: يجب على الصائم أن يصوم بعينه، فلا
ينظر إلى ما لا يحل، وبسمعه، فلا يسمع ما لا يحل،
وبلسانه، فلا ينطق بفحش ولا شتم، ولا يغتاب، وهذه
الأشياء وإن حرمت مطلقًا، ففي رمضان أشد تحريمًا.

وقال الحليمي: ينبغي له أن يصوم بجميع جوارحه؛

بشرته، وبعينه، وبلسانه، وبقلبه، فلا يغتاب، ولا يشتم،
ولا يخاصم، ولا يكذب، ولا يفني زمانه بإنشاء الأشعار،
ورواية الأسماء والمضحكات، والثناء على من لا يستحق،
والمدح والذم بغير حق، وييده فلا يمدّها إلى باطل،
وبرجله، فلا يمشي بها إلى باطل، وبجميع قوى بدنه،
فلا يستعملها في باطل^(١).

كيف تصوم الجوارح؟

ولأبي حامد - رحمه الله - في «إحيائه» فصل مائع
في أسرار الصوم وشروطه الباطنة، نذكره ملخصاً:

قال رحمه الله: اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم
العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.
- **أما صوم العموم:** فهو كف البطن والفرج عن
قضاء الشهوة.

- **وأما صوم الخصوص:** فهو كفّ السمع والبصر
واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

- **وأما صوم خصوص الخصوص:** فصوم القلب عن
الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفّه عما سوى الله عز
وجلّ بالكلية.

ثم قال رحمه الله: وأما صوم الخصوص، وهو صوم
الصالحين، فهو كفّ الجوارح عن الآثام، وتمامه بستة
أمور:

(١) إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام: (ص ١٧٦،
١٧٧) لابن حجر العسقلاني.

الأول : غَضُّ البَصْرِ :

وكفّه عن الاتساع في النظر إلى كلِّ ما يُذم ويكره،
وإلى كلِّ ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل،
قال صلى الله عليه وسلم : «**العينان تزنيان وزناهما النظر**» (متفق عليه).

الثاني : حفظ اللسان عن الهديان :

والكذب، والغيبة، والنميمة، والفحش، والجفاء،
والخصومة، والمراء، وإلزامه السكوت، وشغله بذكر
الله سبحانه، وتلاوة القرآن، فهذا يصوم اللسان.

قال سفيان: الغيبة تفسد الصوم.

وروى ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصيام:
الغيبة، والكذب.

وقال صلى الله عليه وسلم : «**الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائماً
فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل:
إني صائم، إني صائم**» (متفق عليه).

الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه:

لأن كلَّ ما حرّم قوله، حرّم الإصغاء إليه، ولذلك
سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت، فقال
تعالى: ﴿**سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾ [المائدة: ٤٢]،
وقال عز وجل: ﴿**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ
الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ**﴾ [المائدة: ٦٣]. فالسكوت على الغيبة
حرام. وقال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ**﴾ [النساء: ١٤٠].

الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام :

من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن

الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم وهو الكفّ
عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام! فمثال هذا
الصائم مثال من يبني قصرًا، ويهدم مصرًا، فإن الطعام
الحلال إنما يضرُّ بكثرتِه لا بنوعه، فالصوم لتقليله،
وتارك الاستكثار من الدواء خوفًا من ضرره إذا عدل
إلى تناول السم كان سفيهاً، والحرامُ سمٌّ مهلك للدين،
والحلال دواء ينفع قليله، ويضرُّ كثيره، وقصد الصوم
تقليله، وقال صلى الله عليه وسلم: «**رَبِّ صَائِمٍ حَظُهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ
وَالْعَطَشُ**» (رواه أحمد).

قيل: هو الذي يفطر على الحرام.

وقيل: هو الذي يمسك عن الطعام الحلال، ويفطر
على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام.

وقيل: هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

الخامس: ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار:

بحيث يملأ جوفه، وكيف يُستفاد من الصوم قهر
عدو الله، وكسر الشهوة، إذا تدارك الصائم عند فطره ما
فاته ضحوة نهاره، وربما لا يزيد عليه في ألوان الطعام؟
حتى استمرت العادات بأن تدَّخر جميع الأطعمة لرمضان،
فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر^(١).

ومعلوم أن مقصود الصوم النواء، وكسر الهوى، لتقوية

النفس على التقوى، وإذا منعت المعدة من ضحوة نهارٍ

(١) وهذه العادة السيئة مستمرة إلى وقتنا هذا والله المستعان.

إلى العشاء حتى هاجت شهوتها، وقويت رغبتها، ثم
أطعمت من اللذات، وأُشبعَت، زادت لذتها، وتضاعفت
قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو
تركت على عاداتها.

فروع الصوم وسرّه: تضعيف القوى التي هي وسائل
الشیطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا
بالتقليل، وهو أن يأكل أكلته التي يأكلها كل ليلة لو لم
يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان
يأكل ليلاً، فلم ينتفع بصومه.

بل من الآداب: ألا يكثُر النوم بالنهار، حتى يحس
بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عن
ذلك قلبه، ويستديم كل ليلة قدرًا من الضعف حتى
يخفّ عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان ألا يحوم
على قلبه، فينظر إلى ملكوت السماء.

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين
الخوف والرجاء:

إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين، أو
يردّ عليه فهو من الممقوتين، وليكن كذلك في آخر كل
عبادة منها.

فقد روي عن الحسن البصري أنه مرّ بقوم يضحكون
فقال: إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمّاراً
لخلقه، يستبقون فيه لطاعته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف

أقوامٌ فخابوا، فالعجب كلّ العجب للضحك اللاعب
في اليوم الذي فاز فيه السابقون، وخاب فيه المبطلون،
أما والله لو كشف الغطاء، لاشتغل المحسن بإحسانه
والمسيء بإساءته؛ أي كان سرور المقبول يشغله عن
اللعب، وحسرة المردود تسدّ عليه باب الضحك.

**وعن الأنف بن قيس أنه قيل له: إنك شيخ كبير،
وإن الصيام يضعفك: فقال: إني أعدّه لسفر طويل،
والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على
عذابه.**

**فمن اقتصر على كَفِّ شهوة البطن والفريج وترك
هذه المعاني فأَيُّ جدوى لتأخير أكلة، وجمع أكلتين
عند العشاء، مع الانهماك في الشهوات الأخرى طوال
النهار؟**

ولو كان لمثله جدوى، فأَيُّ معنى لقوله صلى الله
عليه وسلم : «كم
من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش».

**ولهذا قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم،
كيف يغبنون به صوم الحمقى وسهرهم، ولذرة من
ذوي يقين وتقوى، أفضل وأرجح من أمثال الجبال
عبادة من المغترين.**

ولذا قال بعض العلماء: كم من صائم مفطر، وكم
من مفطرٍ صائم!!

والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام،

ويأكل ويشرب.

والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش، ويطلق

جوارحه.

ومن فهم معنى الصوم وسره، علم أن مثل من كفّ

عن الأكل، والجماع، وأفطر بمخالطة الآثام، كمن

مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات،

فقد وافق في الظاهر العدد، إلا أنه ترك المهم وهو

الغسل، فصلاته مردودة عليه بجهله.

ومثل من أفطر بالأكل، وصام بجوارحه عن المكاره،

كمن غسل أعضائه مرة مرة، فصلاته متقبلة إن شاء الله

لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل.

ومثل من جمع بينهما كمثل من غسل كل عضو

ثلاث مرات، فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال.

وقد قال **عابدين** صلى الله عليه وسلم: «إن الصوم أمانة، فليحفظ أحدكم

أمانته» (أخرجه الخرائطي وحسنه العراقي).

تجدون المزيد على موقع المخطوطات الإسلامية : www.matwiat.com